عفيف الدين التلمساني في آثار الدارسين

د. بومدين كروم
جامعة تلمسان.

إن الدارس لآثار الشيخ عفيف الدين التلمساني وكذا حياته في المصادر والمراجع التي ترجمته وأرخت له ؛ يجد نفسه أمام حقيقة ماثلة ، هي : أن هذه المصادر والمراجع مشرقية في مجملها، إا مرجعين ، أولهما هو : نفح الطيب ، الذي ورد فيه ذكر عفيف الدين عرضا في أثناء الترجمة لأبي حيان النحوي ، وذلك في قوله :"وممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء ... أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين الكومي التلمساني"[1].

وثانيهما : كتاب تاريخ الأدب الجزائري ، لمحمد الطمار ، الذي أشار إليه دون تفصيل[2].

قلت : لعلهم اقتنعوا في هذا بما ذهب إليه ابن حزم القرطبي من الحكم في من هاجر من وطنه إلى وطن غيره ، في قوله : "فمن هاجر إلينا من سائر البلاد، فنحن أحق به .... ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به"[3]. فأعرضوا عن ذكر أخبار علمائهم وأدبائهم لهذا السبب .

إننا نرى في حكم ابن حزم جورا من ناحيتين ؛ من ناحية البيئة ، من حيث تجريدها من مشاهيرها الذين ولدوا فيها ، وشبوا فوق ربوعها ، وتعلقوا بها، واستمدوها مكونات شخصياتهم وعوامل اشتهارهم ، ومن ناحية الشخصية المهاجرة، من حيث ضياع شطر مهم من تاريخها وملابسات حياتها التي قد تكون مجهولة ، في الغالب في البيئات المهاجر إليها ، ومن هنا نؤكد مستأنسين بنتائج الدراسات النفسية والاجتماعية التي تثمن قيمة النشأة الأولى في حياة الفرد ، وكذا ، التأثير المتبادل بين الفرد والبيئة ؛ أنه ينبغي لكل بلد أن يعنى بأعلامه ، بقوا أو نزحوا ، كما أنه من حق البلاد التي نزح إليها أن تعنى بهم عنايتها بأعلامها الأصليين ، وأن تنسبه إليها ؛ فمن حق الأندلس أن تفخر بمحي الدين بن عربي ، وأبي الحسن الششتري ، وأبي حيان النحوي ، وغيرهم ،كما أنه يحق لمصر والشام الفخر بهم والاعتزاز ، لأنهم اتخذوهما الوطن الثاني الذي عاشوا فيه وتوفوا به .

وكما يحق لتلمسان ووهران الاعتزاز بعفيف الدين التلمساني ومحمد بن محرز الوهراني وغيرهما فإنه يحق للشام أن تعتز بهما الاعتزاز ذاته أو أشد .

إننا بهذا الصنيع نحفظ تاريخ أعلامنا ،كما نؤكد الوحدة بين أوطاننا ، ونسد ثغرات كانت في تاريخنا مرتكزا للشكوك والأوهام .

* نسب العفيف وولادته ونشأته :

لقد ذكرت المصادر والمراجع أنه: أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن ياسين العابدي الكومي التلمساني ، غير أن اسمه لم ينج من التحريف والتصحيف ؛ فقد ورد اسم جده ياسين في كتاب تاريخ الأدب لبروكلمان هكذا:"ياتيننا"[4]. وصحف اسم بلدته كومية التي انتسب إليها فأصبح:الكوفي بدلا من الكومي[5] ؛ وهو تصحيف أوقع الدكتور علي صافي حسين في خطإ شوه نسبة عفيف الدين ، فالعفيف عنده: ولد في الكوفة ثم رحل به أبوه إلى تلمسان، فهو الكوفي التلمساني.

ولقد أجمعت المصادر على أنه توفي سنة: 690هـ ، في نحو الثمانين من عمره ، أي أنه ولد في حدود سنة:610هـ ، غير أن بروكلمان متبوعا بالدكتور عمر فروخ قد جعلا ولادته سنة:613هـ[6].

نشأ العفيف في تلمسان ، وفيها تعلم، ولعله قد كانت له رحلات إلى المدن القريبة، شرقا وغربا لطلب العلم والاستزادة منه ؛ ليرحل بعدها إلى مصر، فأقام في خانقاه سعيد السعداء ، حيث ولد له ابنه: محمد عام:661هـ .

ورحل إلى بلاد الروم، ثم إلى دمشق ، واستقر فيها مع ابنه ، واشتهر بها أمره ؛ ونال عند أميرها حظوة ، فعينه مباشرا لاستيفاء أموال الخزينة[7].

*شخصيته :

تفيد مصادر ترجمته أنه كان كريم الأخلاق ، فاضلا ، حسن العشرة ، ذا حرمة ووجاهة وجلالة ، شجاع القلب ، يصدع بما يراه حقا ، لا يخشى في ذلك لومة لائم ؛ كما كان أبي النفس، عالي الهمة ، لم يتكسب بشعره قط [8].

*مكانته العلمية والفنية :

لقد أجمع مترجموه على سعة ثقافته وتبحره في فنون العلم ، وإن مال ميلا واضحا إلى علم التصوف ، يشرح كتبه ، ويبسط معانيه ، ويكشف أسراره . وقد أشار العاملي إلى هذا التنوع

في ثقافته فقال :" كان كاملا في العلوم ، حكيما متكلما ، نحويا لغويا ، شاعرا أديبا ، عارفا محدثا"[9].

وذكره ابن الجزري فقال : " وله في كل علم تصنيف"[10]. كما ذكروا أن من مصنفاته : شرح فصوص الحكم لابن عربي ، وشرح الأسماء الحسنى ، وشرح منازل السائرين للهروي(-481هـ) ، وشرح العينية في النفس لابن سينا ، ورسالة في العروض ، وديوان شعر[11].

ولم يكن الأدب عنده أقل شأنا من ضروب العلم المختلفة ؛ فشعره يشهد على براعته وسمو فنه وسموقه ، وتمكنه واقتداره ، وهو أمر تنبه له الدارسون فعبروا عنه بأساليب عدة ؛ فابن تيمية ، وهو من أشد خصومه ، يقر بجودة شعر العفيف مبنى لا معنى ، فيقول إن: "شعره في صناعة الشعر جيد ، ولكنه كما قيل ، لحم خنزير في طبق صيني"[12].

وقال الذهبي في العبر :"وأما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغة لا من حيث الإلحاد"[13]. وشهد له ابن الفرات بالإجادة [14]. ونعت الدكتور صافي حسين شعره بقوله :"إن شعر التلمساني الذي بين أيدينا يفيض برقة الإحساس وحيوية العاطفة ، وصدق الشعور"[15]. وهو في نظر الدكتور عمر موسى باشا :"في الطبقة الأولى في الشعر والتصوف على السواء"[16].

إن هذه الأحكام المطلقة ، تصدق على القسم الوافر من شعر العفيف، ولكنها لا تصدق على بعض المقطوعات والقصائد التي نشعر ببرودتها ورتابتها وتعليميتها ، ولعل هذا ما عناه الدكتور عمر فروخ بقوله:"أما شعره فسهل ، ينوء أحيانا بالضعف الذي ينوء به الشعر الصوفي"[17]. ولم يكن العفيف شاعرا مفلقا فحسب، بل كان ناثرا بارعا ، وكاتبا مجيدا ، أنشأ مقامات تداولها الناس في زمانه[18].

*مذهبه وعقيدته:

أغلب الظن أن عفيف الدين قد نشأ على نحو ما كان ينشأ أبناء عصره في بيئته ، من حفظ للقرآن الكريم ، والحديث النبوي ، وتعلم الفقه على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب اهل المغرب والأندلس في ذلك الوقت ، غير أنه مال إلى التصوف، علما وذوقا ، فرحل في طلب رجاله ؛ فالتقى صدر الدين القونوي ، فتتلمذ له ، وأخذ عنه الطريقة المولوية ، وأغلب الظن أن القونوي قد أثر فيه تأثيرا قويا ، وأنه كان السبب المباشر في ميله إلى التصوف الفلسفي الذي مثله في ذلك الوقت ابن عربي وابن سبعين في الأندلس ، وعمر بن الفارض في المشرق ؛ فدرس كتبهم ، فخاض

التجربة ؛ فتكشفت له الأسرار ، فجهر بما رأى ، وعبر عما عانى وذاق تصريحا حينا وتلميحا أحيانا ؛ فلوح بفكرة وحدة الوجود ، ثم تجاوزها إلى القول بالوحدة المطلقة ، كما في قوله:

وطلعت في كل المطالع واحدا * هو عين طالعها وعين المطلع[19].

وقوله:

لا ترم في شمسها ظل السوى * فهي شمس وهي ظل وهي في[20].

وإذا أضيف إليها ما نسب إليه من تشيع وتشدد فيه ومجاهرة به ، حتى نسب إلى فرقة النصيرية ، وقفنا على مرتكز التهم الموجهة إليه .

لقد بلغ العفيف درجة عالية في مذهب القوم ، شهد له بذلك ابن تيمية بقوله فيه : "كان أعرفهم بباطن المذهب وحقيقته...وأنه كان أحذقهم فلم يثبت شيئا وراء الوجود"[21]. وشهد له بذلك ابن سبعين أيضا كما ورد في الشذرات[22].وقال فيه ابن العماد:"والعفيف من عظماء الطائفة القائلين بالوحدة المطلقة "[23].

ومن هنا اختلف الناظرون إليه باختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ؛ فقد رأى فيه أتباعه وأشياعه العالم الروحاني المحقق ، ورأى فيه الفقهاء خطرا على عقيدة الإسلام وشريعته فشنوا عليه حربا دعائية ، قادها العلامة ابن تيمية ، متهما إياه بالكفر والزندقة ، وروى أقوالا قيلت فيه منها: أنه يحل المحارم ، وأنه يكذب بالقرآن والسنة ولا يقيم لهما وزنا ، وأنه كان "يصنف للنصيرية كتبا على مذهبهم، يقرهم على عقيدتهم الشركية"[24].

ونقول في هذا المقام : إن الكثير مما قيل في هذا الشأن قيل بدافع التعصب ، وعليه فإننا نميل إلى التردد في الأخذ بها ، حتى نجد لها دليلا يسندها في آثاره ؛وليس في أشعاره التي بين أيدينا ما يؤيدها ، وإن تنضح بالفكرة الرئيسة ، فكرة الوحدة المطلقة، وليس فيها ما ينم عن خلاعة الشاعر واستهتاره كما ظن د/علي صافي حسين[25]، لخلط وقع له في أشعار العفيف وابنه الشاب الظريف .

لقد ظل الشاعر يرصد مظاهر الجمال وإشراقاته ، ويلاحق الفكرة التي آمن بها ، يرسم مشاهدها ويجليها في شعره إلى أن وافاه أجله.

***وفاته:**

ذكرت المصادر أن عفيف الدين قد توفي سنة: 690هـ ، وأوردت في خاتمة أمره روايتين متضاربتين، إحداهما لأنصار مذهبه ، والأخرى لصومه ؛ تقول الأولى: قال الشيخ برهان الدين الكتبي:" دخلت عليه يوم مات ، فقلت له : كيف حالك؟ ، قال: بخير , من عرف الله كيف

يخاف ، والله مذ عرفته ما خفته ، وأنا فرحان بلقائه"[25]. ويقول ابن تيمية في الثانية : "حدثني بعض أصحابنا عن بعض من أعرفه ، وله اتصال بعفيف الدين التلمساني أنه وقت الموت تغير واضطرب ، قال : دخلت عليه وقت الموت فوجدته يتأوه، فقلت : مم تتأوه؟ ، فقال: من خوف الفوت ، فقلت: سبحان الله ، ومثلك يخاف الفوت ، وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى الله في ثلاثة أيام ؟ ، فقال: ما معناه : زال ذلك كله ، وما وجدت لذلك حقيقة"[27].

وأجدني أميل إلى الرواية الأولى ، وأنشد فيه مع ابنه قوله فيه:

يا قطرعم دمشق واخصص منزلا * في قاسيون وحله بنبات
وترنمي يا ورق فيه ويا صبا * مري عليه بأطيب التحيات
فيه الرضا فيه المنى فيه الهدى * فيه أصول سعادتي وحياتي
فيه الذي كشف العمى عن ناظري * وجلا شموس الحق في مرآتي
فيه الأب البر الشفوق فديته * من سائر الأسواء والآفات
كف تمد بجوده نحوي وأخرى للسمـاء بصالح الدعوات
نفس زكت وزكت بها أنوارهـا * في صورة نسخت صفاء صفاتي
بهرت وقد طهرت سنا وتقدست * شرفا عن التشبيه والشبهـات
في كل أرض للثناء عليه مـا * يروى بأنفاس الصبا العبقات[28].

***الإحالات:**

1- نفح الطيب،551/2.
2- تاريخ الأدب الجزائري:201.
3- ثلاث رسائل في فضل الأندلس وأهلها: 9-10.
4- ينظرفي:عفيف الدين التلمساني شاعر الوحدة المطلقة:62.
5- الأدب الصوفي في مصر:124.
6- ينظر: تاريخ الأدب العربي، د/ عمر فروخ ،658/3.
7- المرجع نفسه:658/3. ومقدمة ديوان الشاب الظريف:4.
8- النجوم الزاهرة، 690/8.والعفيف التلمساني:313.
9- ينظر:ديوان الشاب الظريف ، مقدمة المحقق:14.
10- أعلام الجزائر:235.

11- مجموع فتاوى ابن تيمية، 294/2. وشذرات الذهب، 413/5. وتاريخ الأدب العربي ، فروخ ، 658/3.
12- مجموعة الرسائل والمسائل، 177/1-178.
13- العبر، 267/5. وشذرات الذهب،412/5.
14- عن العفيف التلمساني ، عمر موسى باشا:313.
15- الأدب الصوفي في مصر:131.
16- العفيف التلمساني:257.
17- تاريخ الأدب العربي، 658/3.
18- نفسه: 658/3.
19- ديوانه:137.
20- نفسه:268.
21- مجموع فتاوى ابن تيمية، 372/2،366.
22- شذرات الذهب، 412/5.
23- نفسه، 412/5.
24- مجموع فتاوى ابن تيمية، 224/2-225.
25- الأدب الصوفي في مصر:126.
26- شذرات الذهب، 413/5.
27- مجموع فتاوى ابن تيمية، 268/2.
28- ديوان الشاب الظريف:77.

*المصادر والمراجع:

1-الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري/ د/علي صافي حسين ، دار المعارف ، مصر 1964.
2-أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر : عادل نويهض،ط3/مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ، لبنان 1983.
3-تاريخ الأدب الجزائري ، محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981.
4-تاريخ الأدب العربي ، د/ عمر فروخ ، دار العلم للملايين ،ط3 ، بيروت 1981.
5-ثلاث رسائل في فضل الأندلس وأهلها ، د/صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ،ط1 ، بيروت 1968.
6-ديوان الشاب الظريف ، تحقيق: شاكر هادي شكر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د،ت).
ديوان عفيف الدين التلمساني ، تحقيق: د/العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر1994.
7-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة ، بيروت (د.ت).
8-العفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة ، د/ عمر موسى باشا ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق/ سورية : .1982
9-العبرفي خبر من غبر، لشمس الدين الذهبي، تحقيق : د/صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت:.1960
10-فوات الوفيات والذيل عليها ، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت: 1974.
11-مجموع الرسائل والمسائل لأبي العباس أحمد بن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت:2000.
12-مجموع فتاوى ابن تيمية جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب (د.ت).
13-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن تغري بردى، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة:1956.
14-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لأبي العباس أحمد المقري ، تحقيق: د/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1978.